رأي في شعر أسامة بن منقذ

د. ثناء نجاتي عياش

الملخص

يهدف هذا البحث إلى بيان مظاهر إعجاب الشاعر طلائع بن رزيك بشعر الشاعر أسامة بن منقذ، الذي جاء في ثنايا القصائد الشعرية التي تبادلها الشاعران.

أمّا مظاهر إعجاب طلائع في شعر أسامة فتمثلت في إبراز قدرته على الابتكار والتجديد في صوره ومعانيه، وفي حسن اختياره لقوافيه، وحرصه على تهذيب شعره وتجويده، مما كان له أحسن الأثر في المتلقي، وضمن بذلك خلود شعره، وانتشاره على الألسنة، وتكمن ميزة الآراء السابقة في صدورها عن الشاعر طلائع، فهي نتاج تجربة حقيقية في نظم الشعر.

وسيسعى هذا البحث أيضا إلى بيان دور الاستعارات والتشبيهات التي استعان بها طلائع، وتحليل النماذج الدالة على الصور الحسية والبصرية والسمعية والحركية...الخ.

Title search : Admiration's aspects of the Osama bin Monketh 's poems

Abstract

Admiration's aspects of the Osama bin Monketh 's poems

This research aims to show the admiration's aspects of the poet Talaea Ibn Ruzeik in Osama bin Monketh 's poems.

The admiration's aspects of the poet Talaea in Osama's poetry were represented in highlighting his ability to innovate and innovation in forms and meanings ,in good choice of rhymes and in his commitment to fine tune and intonation in his poetry, which has had the best effect in the recipient, and within the immortality of his poetry which spread among people .

The advantage of the previous opinions issued by the poet Talaea , that they are outcomes of real experience in writing poetry.

And this research will also indicate the role of metaphors and similes used by Talaea and analysis models that indicate the sensory images, visual, auditory and Kinetic, etc…

مقدمة:

إن الناظر في ديوان الشاعر طلائع بن رزيك* يستوقفه حديثه عن شعر صديقه الشاعر أسامة بن منقذ**، من خلال الرسائل الشعرية التي تبادلاها معا .

وهذه الظاهرة تستحق الوقوف عندها لصدورها عن شاعر عرف نظم الشعر، وخبر أسراره، فهو أقدر من غيره على تقييم الشعر ونقده، كما يرى البحتري" إنما يعلم ذلك مَنْ وقع في سلك الشعر إلى مضايقه، وانتهى إلى ضروراته"(1). وهذا ما وافقه عليه بشار بن برد أيضا عندما قال:" إنما يعرف الشعر مَنْ يضطر إلى أن يقول مثله"(2). من هذا المنطلق يأتي هذا البحث ليبين كيف يعبر الشاعر عن إعجابه بشعر غيره، وما الذي يلفته، ويثير إعجابه، وذلك بتسليط الضوء على مظاهر إعجاب طلائع بشعر أسامة، ولا يهدف إلى الكشف عن رؤية نقدية له؛ لأنه لم يكن يسعَ إلى هذا الأمر، وكل الذي كان يهمّه دوام الصداقة بينهما؛لأن أسامة كان همزة الوصل بينه وبين نور الدين زنكي؛ لذا حمّله مجموعة من الرسائل إليه، دعاه فيها إلى الاتحاد معه للوقوف صفا واحدا في وجه الفرنجة.

ويتكون هذاالبحث من محورين اثنين: نظرة في المضامين لبيان مواطن إعجاب طلائع بشعر أسامة، منها:حديثه عن كيفية نظمه لشعره، وانتقائه لمعانيه وصوره، وحسن اختياره لقوافيه، وتنقيحه لشعره ليظهره بأبهى صورة ممكنة، مما يدل على حرصه على إرضاء المتلقي لشعره.

اما المحور الثاني فتمثل في إبراز مواطن الجمال في شعر طلائع الذي عبرّ من خلاله عن إعجابه بشعر أسامة؛ لذا حللت النماذج الدالة على اعتماد الشاعر على فنون القول، ومنها الاستعارة لما فيها من قدرة على التشخيص والتجسيد، وكذلك التشبيهات، ومراعاة النظير وحسن التعليل...الخ التي أسهمت معا في التعبير عن مراد الشاعر.

رأي في شعر أسامة بن منقذ

رسم الشاعر طلائع بن رزيك صورة مضيئة لصديقه أسامة بن منقذ، تنم عن إعجاب حقيقي بصفاته وأدبه وشعره ، فأسامة كان متعدد المواهب، وهذا ما انعكس بصورة جلية في القصائد التي أرسلها طلائع إليه. وأول ما لفت طلائع في شعر صديقه قدرته على الغوص وراء معانيه، وتوفقه في اختيار قوافيه، كما سيتضح في هذا البحث.

اختار الشاعر التشبيه البليغ في أكثر من موضع؛ ليعبر من خلاله عن تفوق صديقه في عدة فنون، وعن إعجابه بقدراته الأدبية والعلمية كما يفهم من قوله(3):

علومك البحر غمر ليس تنتزف أسماعنا لمعاني درها صدف

وقوله(4):

آدابك الغر بحر ، ماله طرف في كل سمع بدا من حسنه طرف

وقوله(5):

وإن نظمت قريضا في مكاتبة فالبحر ما زال منه الدر ينتظم

فهو يشبه الأمر المعنوي (الأدب والعلم) بالأمر المحسوس (البحر) الذي لا يتوقف عطاؤه، والذي لا حد له، واختار التشبيه البليغ ليعلي من خلاله من شأن أدب صديقه، وإذا كان من المتعارف عليه تشبيه الكرم بالبحر، فإن الجديد عند الشاعر تشبيهه الأدب بالبحر، وربما دفعه إحساسه بغرابة هذا التشبيه إلى ذكر وجه الشبه بينهما بقوله (وهو البحر يحتوي في داخله الدر) وكذلك قصائد صديقه، كما أنه يقصد بذلك تعدد مواهبه فهو أديب وشاعر وفارس .... وكنى عن تميزه بهذه المجالات بقوله (بدا من حسنه طرف)، والطرف: كل شيء مستحدث عجيب(6)، ونظرة في عناوين المؤلفات* التي تركها أسامة تؤيد مصداق ما قاله طلائع. وجانس الشاعر بين(طرف وطرف) لما في الجناس من إيقاع صوتي جميل زاده التصريع جمالا في البيت الثالث.

وعبّر الشاعر بصورة مليئة بالحركة عن قدرة صديقه على نظم قصائده، عندما شبهه بالغواص الماهر الذي يحسن الغوص؛ ليستخرج الدرر من أعماق البحر قاصدا بذلك عمق المعاني التي تتضمنها قصائد صديقه، وحسن اختياره لألفاظه التي تأتي بعد تأنيه الشديد في نظم قصائده .

وقد عُرف عن أسامة إخضاعه شعره لكثير من التقويم والتنقيح حتى يظهره للناس بأفضل صورة (7) ؛ ولهذا لم يدون أسامة كل ما قاله من الشعر؛ لأنه لم يرض عن كل ما صدر منه، فحذف منه ما لم يرقه بدليل قوله(8):

كلما رددت في شعري النظر بان ضعف العي فيه ، وظهر

ليس يرضني ، ولا يمكنني جحد ما قد شاع منه واشتهر

فأجيل الفكر في تقليله فإذا قل اختصرت المختصر

وبه فقر إلى ذي كرم إن رأى ما فيه من عيب ستر

وقوله بعد أن جمع شعره في حياته" فعدت إلى تقليله وتمحيصه، وقمت بتنخيله وتلخيصه، وفيه بعد ذلك عيوب يشهد إنصافي وإقراري، ويشفع في سترها اعترافي واعتذاري" (9)، وكلامه هذا " يدل على تطلع أسامة إلى مثل أعلى، كان يبغي أن يصل إليه مستوى شعره"(10.(

وأبدى طلائع إعجابه بقدرة أسامة على اختيار اللفظ المناسب للمعنى الذي يود التعبير عنه، موظفا القول المعروف(رمى فقرطس*) كما يظهر من قوله(11 :(

قرطست رميا ، وكم رام بأسهمه إذا تُحقّق منه يسلم الهدف

والدليل على ذلك كما يقول محقق ديوان أسامة:" وما أورده في شعره من ألفاظ لغوية استعملت في معانيها الدقيقة"(12 .(

وجسد الشاعر الأمر المعنوي (العقول) بصورة حسية (بصرية – لونية) مركبة فهو أولا شبه القصيدة بالبستان الذي يسر الناظرين لما فيه من الحسن والنضارة، ومصورا صديقه بالإنسان الذي يتجول في هذا البستان؛ ليقطف من الثمر أجوده؛ فهو يتأنق في اختيار صوره وألفاظه؛ لذلك تأتي قصائده كما شبهها بالعروس شديدة الجمال والأناقة، بحيث جعل الجمال وقفا عليها وحدها دون الورى؛ ولهذا فهي مصدر للجمال وللحسن الذي يضفي بهاء ورونقا على كل من يصفه كما يظهر من قوله(13 :(

تجيل فكرك في روض العقول فلا تزال تختار ما تجني و تقتطف

بعثت منها هديا في الورى جليت فالحسن وقف عليها ليس ينصرف

عذراء تثبت فضل الواصفين لها فقد أفادت جمالا كل من يصف

ولئن ذكر المعنى عاما في الأبيات السابقة إلا أنه فصّله في قوله(14 :(

حسناء تبرز في عرنينها شمم من الجمال وفي أجفانها وطف

كأن أسماعنا لما أصخن لها عجبا ، أتيح لها من حليها شنف

بدت لنا كمصابيح الظلام وفي رأي العيون أتتنا الروض الأنف

فهو شرع في سرد مواصفات جمال المشبه به (الحسناء/ القصيدة) مستغرقا في ذكر صورتها، ومغدقا عليها من صفات الحسن أجملها؛لأنه يريد أن يبين أثر قصائد صديقه في المتلقي.

وهو في تصويره السابق حافظ على مواصفات الجمال التقليدية التي اعتاد الشعراء على ذكرها في قصائدهم، ليس هذا فحسب بل سار على النمط التقليدي الذي عهدناه في وصف المرأة في الشعر العربي من مثل: جمال الأنف وغزارة شعر الحاجبين والأهداب مع استرخاء وطول، وحسن الصوت، والوضاءة، وعلى الرغم من هذا إلا أن الشاعر استطاع التجديد في بعض جوانب الصور الواردة في الأبيات السابقة الذكر من ذلك :

تشخيصه للجمال وإكسابه صفات الإنسان وأفعاله عندما شبهه بالإنسان الشامخ، يريد بذلك أن جمالها زادها وقارا ورفعة، أما حسن الصوت فلم يتحدث عنه مباشرة، مكتفيا بتسليط الضوء على الأثر الذي يتركه في نفس من يستمع إليه، تاركا بذلك المجال لخيال القارئ ليتخيل حسن صوتها، من خلال مقارنته بين الأذن قبل سماع صوتها وبعده، فقد صور الأذن قبل الاستماع إليه عارية من الحسن أما بعد الاستماع إليه فقد أصبحت تتزين بالقرط، وهذا يعني ضمنا فصاحتها وبلاغتها، ولو لم تكن كذلك لما كان لها هذا المفعول في المتلقي، قاصدا بذلك الأثر الحسن الذي تتركه قصائد أسامة في نفس من يستمع إليها، وبتوظيفه لضمير الجمع (نا) في قوله (أسماعنا) دلل على تفاعل المتلقي مع قصائد أسامة ليس هو فحسب، ومصداق ذلك ما يروى عن صلاح الدين أنه كان شغوفا بديوان أسامة، ويفضله على دواوين غيره من الشعراء(15 .).

أما وجهها فيتميز بإشراقه وبهائه المفهوم ضمنا من تشبيهه لها بالمصابيح التي تنير الظلام، وعلى الرغم من حسية طرفي التشبيه إلا أنه جدد في هذا التشبيه عندما عبر عن المفرد(الضمير في بدت) بصيغة الجمع (مصابيح) ليبالغ في بيان جمالها.

وبعد أن استطرد الشاعر في ذكر أوصاف المشبه به؛ ليستقصي بذلك مواطن جماله الذي قصد به قصائد صديقه أسامة، عاد فختم وصفه لها بعبارة موجزة لكنها ذات دلالة عميقة تغني عن ذكر كثير من التفاصيل، كما يظهر من قوله (أتتنا الروضة الأنف)، وعلى الرغم من تقليدية التشبيه السابق (تشبيه القصيدة بالروضة) إلا أن الشاعر اختاره لما فيه من قدرة على التجسيم، فهو جسّم المعنى المجرد (القصيدة) في صورة الروضة التي لم تُرعَ، ثم أضفى عليها صفات الكائن الحي عندما جعلها تأتي لزيارته، وتزيل الهم والحزن عن قلب كل من متّع ناظريه برؤيتها، وهذا ما حدث له عندما قرأ قصيدة أسامة التي أهداها إليه، ولعله بهذا التشبيه يقصد قدرة أسامة على الابتكار والتجديد في قصائده، وطرقه لمعان لم تُطرق من قبل.

واستعان الشاعر بتجاهل العارف* في قوله(16) :

* هذا كتاب أتى أم روضة أنف*

ليعبر من خلاله عن مدى إعجابه بقصائد صديقه التي تركت أحسن الأثر في نفسه؛ ولهذا الرأي دلالة خاصة لصدوره عن طلائع الشاعر، الذي خبر نظم الشعر، وليس مجرد إعجاب صديق بقصيدة لصديقه .

وعبّر بصورة (سمعية– بصرية) عن الأثر الحسن الذي يتركه شعر صديقه في نفس من يستمع له في قوله(17) :

إن نظمه طرق الأسماع كان لها وإن حوت عطلا من حلية شنف

أما الاعتراض في (وإن حوت عطلا) فيحتمل أمرين: إما أنه يريد أن شعر صديقه يزين الأذن حتى وإن خلت من الحلي، فهو بمنزلة القرط لها، والثاني وإن كانت الأذن ذات حلي فهو يزيدها جمالا، وكلا المعنيين يبين أن لشعر صديقه وقعا حسنا في نفس من يستمع له .

وعلل سر إعجابه بشعر صديقه لما فيه من لين ورقة مشبها إياه بالأزهار النضرة الجاهزة للقطف، فإذا كان منظر تلك الأزهار يثير في النفس الإعجاب مما يجعل الإنسان يقدم على قطفها؛ ليتمتع بما فيها من جمال، كذلك أثر شعره في أذن من يستمع له. كما يفهم من الصورة الواردة في قوله(18) :

رقت حواشي كلام أنت ناظمه فيه ، فجاء كزهر الروض يقتطف

وتتالى الصور الشعرية التي تنمّ عن إعجابه بشعر صديقه أسامة، فبعد الصورة السمعية – البصرية– الحركية في البيت السابق، جاءت الصورة الحسية– اللونية في قوله(19 :)

حررت منها حرة برزت لنا حسنا كنظم اللؤلؤ المكنون

لتتمم المعنى، فهو يشبه قصيدة صديقه بعقد من اللؤلؤ المكنون(المستور عن الأعين)، ولعله استمد تصويره السابق من قوله تعالى:{وَحُورٌ عِين كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُون}[الواقعة:23:22]. ويتضح أنه نقله إلى سياق جديد، فالنص القرآني شبّه نساء الجنة باللؤلؤ المكنون، ولم يذكر الشاعر وجه الشبه بين المشبه (القصيدة) والمشبه به (عقد من اللؤلؤ) ليترك المجال أمام القارئ ليتخيل وجه الشبه بينهما، فقد يكون صديقه طرق موضوعات جديدة أو صورا مبتكرة بدليل قوله المكنون، أو تسلسل الأفكار وترابطها في قصائده بحيث تأتي مثل العقد المنظوم من اللؤلؤ، أو دقته في اختيار ألفاظه الملائمة لمعانيه كما يفعل ناظم اللؤلؤ، أو الوقع الحسن لقصائده في النفس، كما هو وقع اللؤلؤ، وكل هذه المعاني يحتملها التشبيه السابق. كما أن محقق ديوان أسامة بن منقذ شهد له بذلك بقوله:" وتتدفق خواطر أسامة في

قصيدته، ويرتبط بعضها ببعض حتى يصبح البيت لبنة، في بناء ملتحم مؤتلف... ولا تجد ذلك في مقطوعاته القصيرة فحسب، بل في قصائده الطويلة أيضا"(20 .(

واستوحى قول المتنبي(21):

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مُرّاً به الماء الزلالا

عندما شبه شعر صديقه بالماء الزلال في قوله(22 :(

وقريضه عند الظما ينسيهم الماء الزلال

محافظا على معنى بيت المتنبي، وسياقه الذي ورد فيه، وإن كان المتنبي يردّ بذلك على خصومه الذين حاولوا الانتقاص من قيمة شعره، والتقى الشاعران في بيان الأثر الحسن الذي يتركه الشعر في المتلقي.

وطافت ظلال قوله عليه السلام:" إن من البيان لسحرا" في ذهنه عندما وصف شعر صديقه بالسحر الحلال في قوله(23):

ما كان ظني أن يحرم منه لي السحر الحلالا

يقصد بذلك أن لشعر صديقه مفعول السحر في النفوس .

ولم يترك الشاعر مظهرا من مظاهر الجمال في قصائد صديقه؛ لذا توقف عن جمال الخط الذي دوّن به صديقه قصيدته من خلال الصورة الحسية– البصرية– الحركية– اللونية المعتمدة على الاستعارة أولا ثم التشبيه في قوله(24):

خط تنزهت الأزهار حين بدا كأنه الدر ، عنه فُتّح الصدف

وتكمن براعة الشاعر في قدرته على تركيب الصورة السابقة من عدة صور جزئية، فهو شبّه الخط ضمنا بالرياض، ولم يعد مجرد أمر مادي، كما أنه شخصّ الأزهار وأضفى عليها من صفات الكائن الحي الذي يستمتع بالجمال المحيط به، كناية عن جمال خط صديقه، وإعجابا بمضمون قصيدته، ولم يكتف بهذا بل استعان بالتشبيه ثانية ليشبه الخط في جماله ووضوحه بالدر الذي أزيل عنه الصدف، كما أن الفعلين (تنزهت وفُتّح) أسهما في إضفاء الحركة على تلك الصورة بحيث بدا الشاعر رساما يتأنق في رسم لوحته .

ولئن وُفِّق في رسم الصورة في البيت السابق، إلا أنه لم يوفق باختياره الصورة الحسية– اللونية في قوله(25):

زهت على البدر نورا إذ أتت بسواد النقش يشبهه من خده كلف

ليعبر عن مدى جمال شعر صديقه، عندما شبه الحبر المستخدم في كتابة القصيدة بالكلف الذي يبدو على الوجه، وعلى الرغم من أن التشبيه الذي اختاره أدّى المعنى المطلوب، إلا أنه يخلو من الجمال؛لأن منظر الكلف في الوجه غير محبب إلى النفس على أية حال .

وعبّر بصورة حسية– بصرية– حركية– لونية عن مدى إعجابه بالقصائد التي كان يرسلها إليه صديقه، مشبها إياها بالفتاة الجميلة التي تتبختر في ملابسها السوداء، مما زاد في إظهار جمالها، وكان للتلاعب اللفظي الذي أقامه الشاعر بين دلالة الألوان(أبيض– أسود) دوره في إكساب الصورة الواردة في قوله(26):

وردت إلينا منك مجد الدين بيضاء تخطر في الثياب الجون

طرافة ناتجة عن مراده بـ (الجون) أي الحبر الأسود الذي كتبت به، أما القصيدة نفسها فبيضاء .

ورسم الشاعرصورة تفيض بهاء وأناقة وجمالا، قوامها التشبيه البليغ ثم الاستعارة في قوله(27):

هي البدر لكن الثريا لها قرط ومن أنجم الجوزاء في نحرها سمط

ليبين من خلالها تميز شعر صديقه، فقد جعل الشاعر القصيدة والبدر من حيث الجمال في درجة واحدة لا تمايز بينهما؛ ولهذا حذف أداة التشبيه وحذف أيضا وجه الشبه المفهوم ضمنا، وعلى الرغم من ابتذال التشبيه السابق إلا أن الشاعر استطاع التجديد فيه من خلال تشبيهه القصيدة بالبدر ثم تشبيهه القصيدة ضمنا بالفتاة الجميلة ثم ترك المشبه، واسترسل في رسم صورة المشبه به ذاكرا أدق التفاصيل؛ ليستكمل جوانب جمال هذه الصورة، فشبّه الثريا بالقرط الذي كان يزين أذن تلك الفتاة ؛ لتزداد جمالا، ثم زادتها القلادة (أنجم الجوزاء) التي كانت تزين نحرها جمالا وبهاء.

وكشف توظيفه لمراعاة النظير* في بيته السابق عن براعته، فهو ذكر الثريا، والنجم والجوزاء لتناسبها مع البدر بمعناه الحقيقي (القمر) كما أنه ذكر القرط والسمط (القلادة) لتناسبها مع البدر بمعناه المجازي (الفتاة الجميلة) التي شبه بها قصيدة صديقه .

وهكذا يمضي الشاعر في رسم صوره المركبة (الحسية– البصرية– الحركية– اللونية– الشمية) المتكئة على التشخيص بتفصيله في صورة المشبه به في قوله(28):

مشت وعليها للغمام ظلائل تظل، ومن نسج الربيع لها بسط

ليرسم صورة حضارية لهذه الفتاة الأنيقة المترفة، معبرا بصورة مليئة بالحركة ناتجة عن مشية الفتاة فوق بساط نسجته يد الربيع، وبهذا يكون الشاعر قد شخص غير العاقل (القصيدة– الربيع) مضفيا عليه صفات العاقل عندما شبه القصيدة بفتاة تمشي، وعندما شبه الربيع بكائن حي ينسج من الأزهار والنباتات بساطا لتمشي عليه تلك الفتاة .

واتكأ على أسلوب القصر عن طريق النفي وإلا (فما اخضر إلا) ليقارن بين حال ذلك المكان قبل أن تمشي تلك الفتاة فوقه وبعد أن مشت فوقه، فقد كانت أرضه جرداء قاحلة وإذا بها تخضر بمجرد أن مشت فوقها، وهي تجرجر أذيال ثوبها خلفها مما جعلها تثير الأزهار في تلك الرياض فتجاوبت معها؛ لتنبعث منها الرائحة الطيبة التي تطيب الأنفاس بشمها. وأضفى الشاعر على هذه الصورة لمسة جمالية أخرى بتسليطه الضوء على لقطتين متباعدتين، تارة لقطة من الأرض، وتارة لقطة من السماء، ملتفتا إلى السحب التي غطت سماء تلك المنطقة ، التي أضفت ظلالا من البهجة والهدوء كما يفهم من قوله(29):

مشت وعليها للغمام ظلائل تظل ومن نسج الربيع لها بسط

فما اخضر ترب الأرض إلا لأنها عليه، إذا زارت بأقدامها تخطو

ولا طاب نشر الروض إلا لأنه يُجرّ عليه من جلابيبها مرط

ومن يقرأ الأبيات السابقة منتزعة من سياقها يُخّيل إليه أن الشاعر يصف منظرا طبيعيا، يصور من خلاله جمال الطبيعة، ولا يخطر بباله أنه يتحدث عن جمال قصيدة صديقه.

ونالت القوافي التي كان أسامة يختارها لنظم قصائده حظها من وصف طلائع، بوصفها مظهرا من مظاهر تميز قصائد صديقه، فعلى ما يبدو لا تواجه أسامة مشكلة في اختيار قوافيه، فهو يحسن اختيارها، ويأخذ منها ما يشاء بدليل قوله(30):

وردت بحر القوافي، فاغترفت كما قد حلّ يوما بمد النيل مغترف

فهو يشبهه بمن يغترف من مدّ النيل، ولا يغترف من عمق النهر، كناية عن السهولة واليسر في العثور على القوافي، وكم كان طلائع دقيقا في قوله(31):

تأتي القوافي، وهي أبكار له قصدا ، فتخجل للأيادي العون

بتشبيهه القوافي تأتي طائعة لصديقه؛ ليتخير منها ما شاء، وفي قوله (وهي أبكار له) كناية أنه كان يطرق قوافي قلّما نظم الشعراء فيها، ونظرة في ديوان أسامة تبين مصداق ما قاله طلائع في قوافيه، فهو

لم يترك قافية إلا ونظم فيها بما في ذلك الحروف التي يقل اختيارها للقوافي كالزاي والطاء والضاد والظاء؛ ولهذا عد طلائع أسامة أستاذه في هذا المجال، ويفتخر بتتلمذه على يديه هو وغيره من الشعراء، وشخّص القوافي ثانية عندما جعل لها وجها، في قوله(32 :(

إذا تخفى لفتح وجه قافية فعن قوافيك شيلت دوننا السجف

وبما أن طلائع سيتولى الرد على قصائد أسامة فإن هذا الأمر سيدفعه هو أيضا إلى التجويد في قصائده، وبذلك يكون أسامة قد حفزّه على الغوص مثله وراء المعاني المبتكرة وكذلك الصور؛ ولذلك شبه إحدى قصائده التي تولى الرد فيها على أسامة بالعروس، في قوله(33):

ودونك مجد الدين عذراء زفها إليك الوفاء المحض والكرم السبط

هدّيا تهادى بين حسن وفائنا وإنعامنا ذا التاج زان وذا القرط

راسما صورة حسية– بصرية– حركية لهذه العروس التي كانت في أبهى حلة وتتمايل تبخترا ما بين وفائه وإنعامه، اللذين جسدهما بصورة الكائن الحي الذي يلازم هذه الفتاة الجميلة، وتوليا زفها إلى صديقه، لكن جمال قصيدته مهما بلغ لا يبيح لها أن تتفاخر على قصيدة أسامة، التي ضمن عجزها في قوله(34):

على أنها تشتط إن هي ساجلت أجيرة قلبي إن تدانوا وإن شطوا

ومما سبق ذكره يتضح أن لشعر أسامة مكانة في نفس طلائع، للمزايا التي تميز بها شعره " فهو في عصره يوضع في مقدمة الشعراء الذين جددوا شباب الشعر، وكسوه حلة من الفخامة والقوة والجلال" (35) إذن ما قاله طلائع عن قصائد أسامة يعزز مكانته الشعرية التي أقرّ له بها عصره.

وبما أن قصائد أسامة تتميز بما فيها من جمال؛ لذا كان طلائع يتلقاها بقبول حسن، كما يتضح من قوله(36):

حتى إذا وفدت علينا لم تجد بابا، لعمرك، مغلقا من دوني

بإضفائه على القصيدة صفات الكائن الذي يجد القبول والترحاب بمجرد وصوله، وليس بحاجة إلى طلب الإذن للدخول؛ لأن الأبواب مفتوحة أمامه ليدخل من حيث شاء، مكنيا بذلك عن متانة العلاقة بينهما، ومشجعا صديقه على المبادرة بالعودة إليه سريعا، فإذا كانت قصائده تجد كل هذا التكريم والترحاب فما بالك بصاحبها.

وعلى الرغم من هذا فإننا نلمس لمحة من الحزن في ثنايا القصائد المتبادلة بينهما، وربما كان هذا الأمر عائدا لكثرة المحن التي حلّت أسامة، أو ربما لحزن طلائع على فراق صديقه، كما يفهم من قوله(37 :(

تشكو صبابتك التي آلت إلى داء تضرّم في الفؤاد دفين

وركّب الشاعر الصورة (الحسية– الصوتية– البصرية– الضوئية) في البيت السابق من عدة عناصر: فهو أولا شبّه القصيدة بكائن حي يشكو مما ألمّ به من حزن ناتج عن شدة الشوق، مشبها الشوق بالداء المستقر في القلب، ثم شبّه الداء بالنيران المشتعلة، واختار اللفظ (تضرم) وبصيغة المضارع، لما فيه من دلالة على الاتقاد والاشتعال، مما يعني أن إحساسه بالألم إحساس متجدد لا ينطفئ، كما أنه جعل هذا الداء يستقر في قلبه ليكني بذلك عن مقدار الألم الذي يكابده لمعاناة صديقه.

وعاد الشاعر للتشبيه ثانية في قوله(38):

قد علّمت سمر القنا أخلاقه فلذاك منها شدة في لين

بإضفائه على الأخلاق وهي الأمر المعنوي صفات الكائن الحي وجعلها تعلّم، وفي إسناده التعليم إلى الأخلاق وليس إلى فاعلها؛ مبالغة في بيان مقدار إعجابه بحسن خلق صديقه الذي كان يجمع بين صفتي الحزم واللين ولا تناقض بينهما؛ لأن كلا منهما في موضعه، مستمدا صورته السابقة من الواقع الحربي، ومستعينا بحسن التعليل* ليربط بين طرفي الصورة المتباعدين لكنه ببراعته استطاع اكتشاف العلاقة الواصلة بينهما، وكما قيل" تعساً لمن لا شجاعة له على الجمع بين كلمتين لم تقترنا أبداً من قبل"(39) فالقائد يحتاج إلى الحزم في موضعه واللين في موضعه؛ وكذا الرماح فهي تحتاج إلى اللين والصلابة معا؛ لتستطيع القيام بمهمتها في المعركة على أحسن وجه، كما أن الشاعر بدأ كلامه بالتوكيد (قد علّمت) خشية أن يُظَن أن ما يقوله من باب المجاملة لصديقه، وإنما هذه حقيقة يلمسها كل من خبر صديقه وعرفه معرفته.

واستمد الشاعر قوله(40):

إن منّ لم يتبع صنائع جوده منا ، وليس نداه بالممنون

من قوله تعالى:{الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواْ مَنًّا وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون}[البقرة:262]؛ ليكني بذلك عن حسن خلق صديقه، وعدم منّه على الرغم من كثرة عطاياه– التي عبّر عنها بصيغة الجمع (صنائع)– وهي جزء من حسن خلقه النابع عن تمسكه بتعاليم الدين، وأكد هذا المعنى بالتذييل في قوله:" ليس نداه بالممنون"، ولكن الشاعر لم يوفق في

استخدام لفظتي (منّ– المن) لأن للمن ظلالا غير محببة إلى النفس، على الرغم من نفيه هذه الصفة عن صديقه، وربما دفعه حرصه على المجانسة بين الكلمتين إلى توظيفهما، وإلا كان بإمكانه استخدام أية لفظة أخرى تؤدي المعنى المراد، وبخاصة (منّ) إذ كان بإمكانه الاستعاضة عنها بوهب أو أعطى أو منح.

النتائج:

ومن أهم النتائج التي خلص إليها هذا البحث:

تعددت مظاهر إعجاب طلائع بشعرأسامة، فهو تتبع القصيدة منذ أن تكون مجرد فكرة في ذهن مبدعها إلى أن ترى النور، قصيدة تروق لناظمها أولا ثم لمتلقيها الخاص والعام على حد سواء.

فهو تحدث عن بحث أسامة عن التميز في قصائده ببحثه عن الجديد في المعاني والصور، وتأنيه الشديد في نظمه لقصائده، وتنقيحه لها إدراكا منه لأهمية تنقيح الشعر، الذي هو في حقيقته قراءة نقدية ذاتية يقوم بها الشاعر؛ لأنه يغيّر ويبدل في ألفاظه ومعانيه، ويصّوب أي خلل يجده؛ ليقدّم قصيدته بأفضل صورة(41).

وتوقف طلائع عند حسن اختيار أسامة لقوافيه التي كانت كما صورّ تأتيه طائعة؛ لذا لا يجد صعوبة في هذا المجال، وهذا دليل على شاعريته.

وأبرزت قدرة طلائع على الاستقصاء في صورة المشبه به، فكان يطيل في ذكر أدق تفاصيله؛ لاتمام جوانب الصورة، وظهرت لذلك براعته في التشخيص بإضفائه صفات الكائن الحي على الأمور المعنوية، وإكسابها القدرة على الفعل شأنها شأن العاقل، كما في تشبيهه قصائد أسامة تارة بالحسناء الحريصة على أناقتها، وإظهار جمالها، وتارة بالعروس التي تبدو في أبهى حلّة لتسرّ الناظرين، وصنيعه هذا يدل على حرصه على الأثر الحسن الذي سوف تتركه قصائده في المتلقي.

ولم يغفل طلائع توظيف المحسنات البديعية من مقابلة ومراعاة النظير وحسن التعليل التي دلت على اهتمامه بالصنعة في شعره.

واستمد طلائع بعض صوره من القرآن الكريم ومن الحديث النبوي الشريف، ومن شعر لبيد بن أبي ربيعة والمتنبي، ونجح في إدخال ما استمده في نسيج نصه؛ ليثريه .

الهوامش:

*هو أبو الغارات طلائع بن رزيك (-556 هـ) لُقِب بالملك الصالح، تولى الوازرة في عهد الخليفة الفائز ثم العاضد، فتح أبواب قصره أمام الشعراء والأدباء والفقهاء، ونفق في زمانه الشعر والنثر، وله ديوان شعر. ولمزيد من التفاصيل: ينظر: العماد الأصفهاني، محمد بن محمد بن نفيس، خريدة القصر وجريدة العصر(شعراء مصر) نشره: أحمد أمين وشوقي ضيف وإحسان عباس، 173-174. ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت 2/ 5226.

**هو مؤيد الدولة أبو المظفر، أسامة بن مرشد بن منقذ (-584هـ/ 1188م) فارس، وشاعر، وأديب، وكان متعدد المواهب، ولد في شيزر التي دمرّها فيما بعد زلزال قضى على أسرته فرثاهم بأعذب القصائد، وألّف كتابه "المنازل والديار" بعد حدوث الزلزل في عام 553هـ، وعمرّ طويلا وانعكس هذا الأمر جليا في مؤلفاته، وقال عن ذلك:" لا يظنن ظان أن الموت يقدمه ركوب الخطر, أو يؤخره شدة الحذر, ففي بقائي أوضح معتبر, فكم لاقيت الفرسان وقتلت الأسود وضربت بالسيوف وطعنت بالرماح وجرحت بالسهام, وأنا من الأجل في حصن حصين إلى أن بلغت تمام التسعين ". له العديد من المؤلفات منها: كتاب البديع في نقد للشعر، وتاريخ القلاع والحصون، وكتاب المنازل والأديار، وكتاب لباب الآداب، وكتاب الاعتبار، وله ديوان شعر، جمعه في حياته وكتبه بخط يده. ولمزيد من التفاصيل ينظر: وفيات الأعيان،2/ 195. وكتاب الاعتبار، أسامة بن منقذ، تحقيق وتقديم: قاسم السامرائي، وزارة الثقافة، عمان.عدة مواضع.

(1)إعجاز القرآن، الباقلاني، محمد بن الطيّب، شرح وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط1، 168،1991.

(2)نفسه،169.

(3)ديوان طلائع بن رزيك،أحمد أحمد بدوي، مطبعة الرسالة، 1958، 76.

(4)نفسه، 71.

(5)نفسه، 90.

(6)المعجم الوسيط، مادة (طرف.(

*من عناوين بعض مؤلفاته: كتاب البديع في نقد للشعر، وتاريخ القلاع والحصون، وكتاب المنازل والأديار، وكتاب لباب الآداب، وكتاب الاعتبار...ألخ

(7) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، أحمد أحمد بدوي، دارنهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ط2، 175، 176.

(8)ديوان أسامة بن منقذ، تحقيق وتقديم: أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، عالم الكتب، بيروت، ط2، 1983، 14.

(9)مقدمة ديوان أسامة بن منقذ، 47.

(10)ديوان أسامة، مقدمة التحقيق، 13.

*وكل أَديم ينصَب للنِّضال، فاسمُه قِرطاس، فإِذا أَصابه الرَّامي قيل: قَرْطَس أَي أَصاب القرطاس، والرَّمْيَةُ التي تُصيب مُقَرْطِسة. لسان العرب، مادة(قرطس.(

(11)ديوان طلائع، 72 .

(12)ديوان أسامة بن منقذ، 6.

(13)ديوان طلائع، 76.

(14)نفسه، 77.

(15)أسامة بن منقذ حياته وشعره، حسن عباس، الهيئة المصرية للكتاب، 129.

" *هو سؤال المتكلم عما يعلمه حقيقة تجاهلا منه به؛ ليخرج كلامه مخرج المدح أو الذم أو ليدل على شدة التدله بالحب، أو لقصد التعجب، أو التقرير أو التوبيخ". بديع القرآن، ابن أبي الإصبع المصري، ، تقديم وتحقيق:حفني محمد شرف، نهضة مصر للطباعة والنشر، 50.

(16)ديوان طلائع، 71.

(17)نفسه، الصفحة نفسها.

(18)نفسه، الصفحة نفسها.

(19)نفسه، 102.

(20)ديوان أسامة بن منقذ، 14.

(21)ديوان أبي الطيب المتنبي، شرح أبي البقاء العكبري، دار المعرفة، بيروت، 228/3.

(22)ديوان طلائع، 83.

(23)نفسه ، 83.

(24)نفسه ، 71.

(25)نفسه ، الصفحة نفسها.

(26)نفسه ، 102.

(27)نفسه ، 64.

" *وهو ذكر الشيء وما يناسبه لا بالتضاد" الخطيب القزويني، جلال الدين حمحد بن عبد الرحمن، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق وتنقيح: محمد عبد المنعم الخفاجي، بيروت ، دار الجيل، ط3،3 199، 19/6.

(28)ديوان طلائع، 64.

(29)نفسه ، 64، 65.

(30)نفسه ، 71.

(31)نفسه ، 103.

(32)نفسه ، 72.

(33)نفسه ، 70.

(34)نفسه ، الصفحة نفسها.

(35)الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية في مصر والشام، 188.

(36)ديوان طلائع، 103.

(37)نفسه ، 102.

(38)نفسه ، 103.

(39)مبادئ في علم الدلالة، رولان بارت، ترجمة: محمد البكري، دار قرطبة للطباعة والنشر،الدار البيضاء، ط1، 1986، 109.

(40)ديوان طلائع،103.

(41)هذا ما نصح بفعله ابن رشيق في كتابه: العمدة في محاسن الشعر وأدبه، تحقيق: محمد قرقزان، دار المعرفة، بيروت، ط1988،1، 1/ 222 و223.